الخلفيات المعرفية للمنهج البنيوي

نهضت البنيوية بوصفها منهج بحث على تطبيق النموذج اللغوي على المادة قيد الدراسة وعمقت أفكار القطيعة مع المؤثرات الخارجية تلك التي أقصتها الشكلانية الروسية واللسانيات السوسيرية ليظهر جليا اتكاء البنيوية كمنهج نقدي على تلك الأفكار والمبادئ اللسانية والشكلانية لترسم لنفسها آليات مستقلة تستثمرها في مقاربة النص داخليا. وعليه وجب التعرف أولا عن تلك الاتجاهات النقدية واللسانية السابقة عن ظهور البنيوية، والتي شكلت الخلفيات المعرفية لها، وذلك لاكتشاف مدى إسهامها في بلورة المنهج البنيوي بمقولاته الإجرائية.

أولا- البنيوية وخلفياتها المعرفية

01- اللسانيات السوسيرية:

رغم الإقرار باستحالة تطابق نقطة التحول في علم اللغة مع بداية القرن العشرين (20م)، إلا أن التطورات التي شهدها لم تكن نقطة منقطعة الصلة بأعمال السابقين خاصة "فيلهلم فون هامبلت" وجماعة النحاة الجدد، الذين تركوا بصماتهم على أفكار واتجاهات"ج. رايت" (انجلترا) وفرديناند دي سوسير وغيرهما. فلقد ابتعدت الدراسات اللغوية في القرن التاسع عشر (19م) عن التأثيرات الفلسفية وسلكت مسلك علوم الأحياء حينا، والعلوم الطبيعية حينا آخر، لكن مع بداية القرن العشرين(20م) أخذت منحى آخر وهي النزعة الاستقلالية التي ترى اللغة فيها من خلال النص؛ أي من داخل نفسها. إنّ الحديث عن علم اللغة العام يقودنا بالضرورة إلى الحديث عن الأب الروحي له، إنه العالم اللغوي السويسري "فرديناند دي سوسير" " ferdinand de saussure "(1857م-1913م).

تعد الأبحاث التي قدمها سوسير ما بين (1906م_1911م)من أهم الدراسات اللسانية البنيوية، إذ إنّه أول من دعا إلى دراسة اللغة في ذاتها ولأجل ذاتها دراسة وصفية تبحث في نظامها وقوانينها، دون الاهتمام بجوانبها التاريخية التطورية الزمانية. فالعلم المعاصر اليوم لا يعالج الظواهر كتكتل آلي بل ككل بنيوي، وتكون المهمة الأساسية هي الكشف عن القوانين الداخلية لهذا النظام سواء أكانت قوانين ثابتة أم متطورة. فلم يعد المثير الخارجي مدار الاهتمام العلمي، وإنما المقدمات الداخلية للتطور يقول "رومان جاكبسون": <<**إن البحث في البنية اللفظية هو الهدف الممتاز للسانيات بأنواعها كافة ، وإن المبادئ الرئيسة لمثل هذا المقترب البنيوي للغة ، تلك المبادئ المشتركة لكل أشكال هذا البحث، يمكن أن تحدد كأفكار موحدة عن الثبات و النسبية. /.../ويستدعي هذا تفحص النظام اللغوي تبصرا عميقا في تماسكه الداخلي، وفي الطبيعة العلائقية والتراتبية الصارمة لجميع مكوناته، بدلا من جدولتها بصورة ميكانيكية**>>. وقد أوضح"دي سوسير" أن أي لغة يجب أن ترى وتوصف تزامنا بوصفها نظاما من العناصر المترابطة؛ أي عناصر معجمية وقواعدية، وليس بوصفها مجموع الكيانات المكتفية بذاتها وهي النظرية التي عبر عنها بقوله: <<**إن اللغة عبارة عن صيغة وليست مادة** >> موضحا إياها باستعارتيه المعروفتين: لعبة الشطرنج والقطارات التي تتحد وتعرف مكانها في اللعبة أو السكة الحديدية، وليس بتكوينها المادي الفعلي. فقد فرق"سوسير" بين البعدين الأساسيين للدراسة اللغوية "البعد التزامني" الذي تعالج فيه اللغة بوصفها نظام

اتصال تام في ذاته و"البعد التعاقبي" الذي تعالج فيه اللغة تاريخيا؛ أي في حقب مختلفة من تطور لغة واحدة.

ويحمل هذا التمييز نتائج أهمها: تأكيد حقيقة اللغة بوصفها نسقا متكاملا وكاملا ومستقلا عن تاريخه ومن خلال هذا دعا"سوسير"إلى إخراج "البعد التعاقبي"(التاريخي)عن الدراسات اللسانية، فكل دراسة – إذا– تبنت التحليلات التاريخية الزمانية ستؤول حتما إلى نتائج وهمية غير مؤكدة. وقد تبنت البنيوية الدراسة الوصفية السكونية للغة وذلك من خلال إقصائها لجميع التفسيرات الخارجية سيما التاريخية منها وهناك فكرتان أساسيتان عند "سوسير" هما: اللغة والكلام و الذي قام بتقديم تمييز أساسي بينهما؛ حيث إنّ اللغة تسبق الكلام عنده مادامت نظاما يتسبب في إيجاد الخطابات الممكن وضعها. وقد عرفها فقال: <<**اللسان هو رصيد يستودع في الأشخاص الذين ينتمون إلى مجتمع واحد بفضل مباشرتهم للكلام وهو نظام نحوي يوجد وجودا تقديريا في كل دماغ /.../ وبفصلنا اللسان عن الكلام، نفصل في الوقت نفسه، ما هو اجتماعي عما هو فردي. وما هو جوهري عما هو إضافي أو عرضي**>>؛ أي إنّ نسق اللغة سابق في وجوده استخدام الكلمات و الممارسة الفعلية التي هي تلفظ فعلي. أما اللغة فهي الجانب الاجتماعي أو النسق المشترك الذي نعول عليه لا شعوريا بوصفنا متكلمين. والكلام هو التحقق الفردي لهذا النسق في الحالات الفعلية من اللغة. هذا التمييز هو المهاد الذي تنطلق منه البنيوية اللاحقة. ولقد رفض"سوسير" اعتبار اللغة كومة من الكلمات التي تتراكم عبر الزمن، لتؤدي وظيفة أولية، هي الإشارة إلى الأشياء في العالم، فالكلمات عنده ليست رموزا بل علامات مركبة من طرفين متصلين. ولقد تبنى "سوسير"عند نهاية أنشطته العلمية التصور الرواقي للعلامة اللفظية الثنائية المؤلفة من دال(المكون الحسي) ومدلول(المكون العقلي). وقد أدرك بوضوح أن الربط بينهما هو ربط اعتباطي وان نظام اللغة الكلي مبني على المبدأ اللاعقلاني عن اعتباطية العلامة. وبذلك شكّل علم اللغة (اللسانيات) الرّحم الذي تخلقت فيه البنيوية وأخذت منه جل ملامحها، فنظرت إلى النص على أنه نسق لغوي مغلق على ذاته تحدده علاقاته الداخلية المنتظمة في بنيته الكبرى لتقصي بذلك على غرار ما فعله سوسير كل المؤثرات الخارجية، ليجد قارئ النص نفسه في سجن لغوي فرضته البنيوية عندما أعلنت موت المؤلف وسلطة النص.

02– الشكلانية الروسية:

يبقى تاريخ الشكلانية الروسية الأنموذج الذي يدل بوضوح وببلاغة على وظيفة الحركات والمدارس الثورية الأصيلة تمتد وتثمر بالرغم من سلطات القمع وقوى التجاهل. إذ كان الأدب الروسي– خصوصا الدراسات الأدبية– يعيش أزمة منهجية فقد كان يخضع لهيمنة نقد سوسيولوجي له خلفيات سياسية وإيديولوجية وبذلك أصبحت العلاقة السببية بين الأدب والحياة أشبه بعقيدة مغلقة. خلال هذه الظروف ظهرت جماعتين روسيتين تسعيان إلى ثورة ضد هذه العدائية الثقافية البرجوازية تمثلت المجموعة الأولى في حلقة موسكو اللغوية التي تأسست عام(1915م) وجماعة الأوبوياز(جمعية دراسة اللغة الشعرية). وكانت بداية الشكلانية تكتسي طابعا عرضيا لكنها سرعان ما وعت ضرورة تغيير طريقها وذلك نحو شيء أساسي وهو السعي نحو محاولات لتأسيس مبادئ وأسس للنظرية الأدبية، الشيء الذي جعل من أعضاء الحلقتين

حريصين على ألا يجعلوا الهوة كبيرة بين الحقلين الأدبي واللساني؛ إذ وعى الشكلانيون بأهمية البحث والتفكير في نظرية الأدب وتكون بعيدة عن كل ما يمكن أن يلتصق به كعلم النفس أو علم الاجتماع.

ويعتبر الشكلانيون أنّ الموضوع الذي يشكل المادة التي يستوجب دراستها هي اللغة و جاء ذلك نتيجة احتكاك الأدب باللسانيات ؛ حيث اعتمد على مجموع من الأسس و المفاهيم اللسانية أولها المنهج الوصفي الذي استخدمه المنهج اللساني مع "سوسير" الذي أكد على أهميته وفعاليته؛ حيث يوصف المنهج الشكلي بأنه وصفي، إذ يقوم بالتمييز والتحديد وفي هذا الإطار يقول"إخمباوم": **<<يوصف منهجنا عند العموم بالشكلانية وأفضل أن أسميه منهجا مورفولوجيا، ذلك لأجل تمييزه عن المنظورات الأخرى مثل المنظور النفسي والاجتماعي وغيرهما؛ حيث لا يكون الموضوع الأدبي نفسه موضوع البحث و إنما يكون موضوع البحث هو ما ينعكس في الأثر الأدبي.** >>. فحين ركّز الشكلانيون على اللغة فإنّهم يؤكدون في الحين نفسه ضرورة الاقتصار على ما يتوجب النظر فيه؛ حيث رفضت الشكلانية كل أنواع المقاربات (النفسية- التاريخية- الاجتماعية..) فبالنسبة إليهم لا يمكن دراسة اللغة أو النص الأدبي انطلاقا من بعض العلوم المجاورة باعتبارها جملة من العوائق في معرفة بنيات النص الأدبي أو الانطلاق من حياة المؤلف، وهذا ما أكده "فيكتور إيرليخ": <<**إن مكمن خاصية الأدب ينبغي البحث عنها في الأثر الأدبي نفسه[النص الأدبي] وليس في الأحوال النفسية للمؤلف أو القارئ**>> وهي النقطة التي ركزت عليها البنيوية فيما بعد وذلك مع "رولان بارت"مع مقولة موت المؤلف حيث يقول: <<**الكتابة قضاء على كل صوت، وعلى كل أصل، الكتابة هذا الحياد هذا التأليف واللف الذي تتيه فيه ذاتيتنا الفاعلة، إنها السواد-البياض الذي تضيع فيه كل هوية، ابتداء من هوية الجسد الذي يكتب.**>> فالقول بموت المؤلف بوصفه مبدع النص هو الأساس الذي قامت عليه الشكلانية والبنيوية باعتبار النص الأدبي نظاما منغلقا يمكن مقابلته بالنسق من هنا تتضح لنا بعض ملامح النظرة العلمية للشكلانيين الذين يرغبون في تحديد المجال الأدبي والتفرغ إليه وسعيهم نحو خوصصته، تلك الرغبة في تأسيس علم الأدب، انطلاقا من الخصوصيات الداخلية للمادة الأدبية؛ أي إنّ موضوع علم الأدب يجب أن يختص بدراسة الخصائص النوعية للمواضيع الأدبية والبحث في مكوناتها الداخلية التي يتشكل منها النص الأدبي، وهذا لا يعني عدم استعمال الأدب كمادة مساعدة ثانوية وهذا ما يراه"جاكبسون" في موضوع علم الأدب **<<ليس الأدب إنما هي الأدبية؛ أي تلك الخصائص التي تجعل من عمل معين عملا أدبيا>>** فالأدبية إذا هي مجموع تلك الخصائص الداخلية المستقلة في العمل الأدبي التي تنتجه وتميزه.

بعد أن قام "جاكبسون" بالتمييز بين مختلف الوظائف اللغوية، لاحظ أن حضور وظيفة لا يعني غياب الوظائف الأخرى، فالوظيفة الشعرية لا تنفي وجود المرجعية، بل إنها تهيمن. ومن ثمة كان لمفهوم القيمة المهيمنة بعدا كبيرا في أعمال الشكلانيين وبالأخص "جاكبسون" الذي حدده بأنه العنصر الذي يحتل البؤرة من العمل الأدبي، فهو الذي حكم غيره من العناصر أو المكونات ويحددها ويحورها إنه**<<العنصر الذي يمنح العمل بؤرة تبلوره، وتسيير وحدته أو نظامه الكلي>>** وليس من شك أن الوعي بالدور الذي تلعبه اللغة قد اتضح لهم من خلال النموذج اللغوي؛ حيث ركزوا على اللغة ودعوا إلى كسر ألفتها وتغريبها، وهو

ما سبق إليه الرمانسيون، لكن هذا السبق لا يعني اتفاقهما في الفكرة نفسها ، على عكس ذلك فإنهما يختلفان اختلافا تاما؛ حيث إنّ كسر ألفة اللغة لدى الرومانسية يرتبط بدعوتهم للعودة إلى الأشياء البسيطة بعيدا عن دنس الحضارة، أما الشكلانيون فهي التمرد على جمودها كما يقول "عبد العزيز حمودة".

ويستخدم "شكلوفسكي" مصطلح التغريب الذي يوضحه في دراسة "الفن تقنية" بقوله: **<<إن غرض الفن هو نقل الإحساس بالأشياء كما تدرك وليس كما تعرف، وتقنية الفن هي إسقاط الألفة عن الأشياء وتغريبها، وجعل الأشياء صعبة، وزيادة صعوبة فعل الإدراك. >>**، إذا فقد ركز الشكلانيون على هذه التقنية وتناولوا الأدب على أنّه استخدام خاص للغة يحقق عبره الانحراف على اللغة العلمية وتشويهها وهذا ما يميزها عن اللغة الأدبية التي ليست لها وظيفة علمية لكنها تجعلنا نرى بشكل آخر مختلف.

03- النقد الجديد:

ظهر مصطلح النقد الجديد لأول مرة على الساحة النقدية الأمريكية الذي اتخذ منها مركزا له، عندما بدأ مجموعة من النقاد أبرزهم"إليوت، جون كرانسوم، وآلان بيت.." وغيرهم في التعبير عن أفكارهم وتأليف أعمال تشكلت منها مبادئ هذه المدرسة وقد سادت هذه الحركة مدة ثلاثة عقود(من الثلاثينيات إلى الخمسينات) إذ تمكن هؤلاء النقاد من نشر معتقداتهم بفعالية في الفصليات الأدبية وكتب مناهج الكليات. وقد جاء هذا المنهج النقدي ليدير ظهره للمناهج النقدية السياقية؛ حيث يرى أصحابه أن**<<النقد النفسي ينتقل إلى تحليلات سيكولوجية مرضية بعيدة عن العمل الفني وكذلك يفعل النقد الاجتماعي حيث يعالج ظاهرات وقضايا اجتماعية وتاريخية، بدلا من أن يصب اهتمامه على النص الأدبي وحده>>**. من هذا يتبين لنا أن النقد الجديد يركز هو الآخر على العمل الأدبي في حد ذاته ما يشكل نقطة الالتقاء بينه وبين البنيوية التي تركز على النص الأدبي دون سياقاته الخارجية. فالنقد الجديد**<< يفصل أولا النقد الأدبي عن دراسة المصادر والخلفيات الاجتماعية، وتاريخ الأفكار والسياسة/.../[بل] يركز الاهتمام أساسا على الموضوع الأدبي"نفسه/.../ ثانيا يستكشف بناء العمل وليس عقل المؤلف>>** وبهذا يركز النقد الجديد على دراسة الأعمال الأدبية بعيدا عن المؤلف وظروف تأليفه، وهوما تبنته البنيوية حين أعلن بارت صراحة عن موت المؤلف.

المراجع

1. محمد عزام: المنهج الموضوعي في النقد الأدبي، ط01، دار اتحاد الكتاب، دمشق، 1999م.
2. *فنسنت ليتش: النقد الأدبي الأمريكي- من الثلاثينيات إلى الثمانينيات، تر: محمد يحيى، مر، تق: ماهر شفيق.*
3. رولان بارط: درس السيميولوجيا، تر: عبد السلام بن عبد العالي، تق: عبد الفتاح كيليطو، ط02، دار توبقال، المغرب.
4. فكتور إيرليخ: الشكلانية الروسية، تر: محمد الولي، ط01، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2000م.
5. صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، ط01، دار الشروق، القاهرة، مصر، 1998م.
6. رومان جاكبسون: الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، تر: علي الحاكم وحسن ناظم، ط01، المركز الثقافي العربي، المغرب.
7. رامان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، تر: جابر عصفور، ط02، دار قباء، القاهرة، مصر، 1998م.
8. شفيقة العلوي: محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، ط01، دار أبحاث ، بيروت، لبنان، 2004م.

البنيوية المفهوم والمقولات

01- مفهوم البنيوية:

لقد عدت البنيوية من المناهج النقدية الحداثية التي أحدثت ثورة في مختلف العلوم الإنسانية خاصة ما أحدثته من تغيير في الدراسات النقدية والأدبية. فما هي البنيوية ؟ وما أهم مقولتها ؟.

لقد تنوعت البنيوية تنوعا مختلفا سواء على مستوى أشكالها أو على مستوى مجالاتها حتى أضحى من الصعب تمييزها وهذا ما يعترف به "جان بياجيه" قائلا: <<إنه من الصعب إيجاد ميزة للبنيوية، ذلك أنها ارتدت أشكالا كثيرة ومتنوعة>> وقد عرض في كتابه البنيوية عددا من البنيويات مثل: البنيوية النفسية واللغوية وغيرهما كثيرة... وجاء في دليل الناقد الأدبي لميجان الرويلي وسعد البازعي مفهوم البنيوية والذي يقول: << ظهرت البنيوية كمنهج ومذهب فكري على أنّها ردة فعل على الوضع (الذري) /.../ الذي ساد العالم الغربي في بداية القرن العشرين(20م). وهو وضع تغذى من وانعكس على تشظي المعرفة وتفرعها إلى تخصصات دقيقة متعددة ثم عزلها عن بعضها عن بعض لتجسيد من ثم/.../ عزلة الإنسان وانفصامه عن واقعه والعالم من حوله /.../ لذلك ظهرت الأصوات التي تنادي بالنظام الكلي المتكامل والمتناسق الذي يوحد ويربط العلوم بعضها ببعض>>.

من خلال هذا التعريف نستشف أن البنيوية منهج ظهر في بداية القرن العشرين يسعى إلى ربط العناصر داخل نظام واحد ودراسة العلاقة بينها من أجل بناء نظام كلي متكامل ومتناسق. تقول "إديث كروزويل": <<البنيوية هي محاول منهجية للكشف عن الأبنية العقلية الكلية العميقة>> فالبنيوية هي طريقة منهجية تحاول القبض على البنى الكلية وطريقة ترابطها وتفاعلها فيما بينها.

إنّ الحديث عن البنيوية يحيلنا إلى اشتقاقها اللغوي الأصلي الذي هو البناء أو البنية وعلى ضوء هذا ما هي البنية ؟

02- مقولات البنيوية:

يتركز الفكر البنيوي على جملة من المقولات أهمها:

أ/ موت المؤلف: إن فكرة موت المؤلف ترتد إلى جذور فلسفية غربية وذلك حين أعلن نيتشه موت الإله لتلاقي هذه الفكرة ترحيبا كبيرا في مجال الدراسات الأدبية والنقدية والفكرية التي عدتها تعبيرا عن اللحظة التاريخية في أوروبا آنذاك. فقد أعلن الأدباء موت الشخصية في المجال الأدبي وموت المؤلف في المجال النقدي.

إن أول مقولة تجسد فكرة موت المؤلف مقولة "رولان بارت" الناقد البنيوي بامتياز حين قال: <<الكتابة قضاء على كل صوت، وعلى كل أصل. الكتابة هي هذا الحياد، هذا التأليف واللف الذي تتيه فيه ذاتيتنا الفاعلة، إنها السواد–البياض الذي تضيع فيه كل هوية، ابتداء من هوية الجسد الذي يكتب>> وبذلك تكون الكتابة عند "رولان بارت" موت للمؤلف، الذي يموت كلمة بعد كلمة إلى أن ينتهي من ذلك فتضيع تلك الذات الفاعلة ؛حيث لا يبقى إلا النص ونسقه المغلق. هذا النسق الذي لا علاقة له بالأشخاص بعيدا عن الذات، إذ أصبح سهما خاطفا يخترق الإنسان.

وجاء في "دليل الناقد الأدبي" أن:<<الأدب لم يعد إبداعا عبقريا يعتمد على قدرة المؤلف الخارقة، بل أصبح صيغة كتابية مؤسساتية تحكمها قوانينها وشفرات تميط اللثام عن هذا ((اللغز)) القار من أفلاطون إلى عصرنا هذا. كما أثرت البنيوية على مفاهيم وظيفة الأدب وطبيعته، فلا هو يحيل إلى العالم الخارجي الطبيعي /.../ ولا هو عبقرية يعتمد على ملفها وصاحبها>>. وبهذا يسقط المؤلف عند الكتابة ليفقد وظيفته لتتبناها الكتابة. فقد عرفت الدراسات اللسانية الأدبية في كافة تنويعاته اللسانية والبنيوية "النقد المحايث" الذي يسعى إلى مقاربة النص الأدبي مقاربة مغلقة البنية ومكتفية بذاتها، لا تحمل إلى الذات المنتجة أو سياق الإنتاج، بل تحيل على اشتغالها الكامن والداخلي فقط، وبذلك يلغى المؤلف والسياق مكرسا تركيزه على النص ولا شيء سواه.

يعرف "منذر عياشي" الكتابة قائلا: <<الكتابة كائن مستقل يسكن الوجود ولا يحاكيه، ويخترق الحياة ويتميز منها يطارح الإنسان لذة و شهوة وينقلب عليه. غيور على نفسه، محب لذاته إلى درجة الأنانية. يجابه. يتحدى السلطات ويعلن عن وجوده بقاء أبديا تتوالد فيه المعارف، فيتصدى بها جدله المستمر، وهو طليق لا ينتمي بتبعية تعبر عن ذاته>>. هكذا يضيع ويغدو المؤلف بين الكتابة ويصبح النص قاتلا متعمدا لا يعترف إلا بنفسه بعيدا عن كل ما هو خارجي وسياقي.

ب/ مقولة الآنية ورفض التاريخ

عرف الدرس اللساني مقولة الآنية (التزامنية) والتاريخية (التعاقبية) الذي أعطى الأولوية للآنية على حساب التعاقبية. وبما أنّ الدرس اللساني من الروافد المعرفية للبنيوية فقد تبنت هذه الأخيرة هذا المبدأ حيث دعت إلى تلك القطيعة مع السياق الخارجي. إذ يرى سوسير لما طور دراسته للغة دراسة آنية حيث تدرسها على أنّها<< جزء واحد من النظام يتزامن مع نفسه>> وبما أن الدراسة الآنية تدرس اللغة كنظام وهذا النظام له بنيات(بنية) ومن خصائصها الشمولية والتحول وتنظيمها الذاتي فإنّ الدراسة التاريخية معيقة لاكتشاف تلك الأنساق ومدى ترابطها وعلاقتها فيما بينها.

ويتحدث زكريا إبراهيم في كتابة "مشكلة البنية" عن التزامنية والتعاقبية بأن الأولى تمثل المحور الأفقي تقوم فيه العلاقات بين الأشياء المتواجدة على أساس ثابت لا يتدخل فيه الزمان، أما التعاقبية فهي المحور الرأسي الذي تقوم فيه العلاقات بين الأشياء المتباعدة على أساس التغير والتبدل التاريخي والزمني، وفي هذه الحالة يكون المحور الأفقي(التزامني) ذا وجهة وصفية تنظر إلى حالة اللغة، والمحور الرأسي ذا وجهة تاريخية تدرس تطور اللغات.

ج/ مقولة النسق

استعمل سوسير مصطلح النسق/النظام ولم يستعمل البنية، ويوجه منهجه بقوله: " وسواء أخذنا الدال أو المدلول فإن اللغة ليست لها أفكارا أو أصواتا سابقة على النسق اللغوي، بل اختلافات فكرية وصوتية تنشأ في النسق".

وبهذا فالنسق هو الذي يوفر إمكانية العلامة، وهو ما يضع النسق في قلب النموذج اللغوي/ المنهج البنيوي ليدرك العلاقات التي تمثل وحدة النسق، فالنسق الفردي هو في مجال اللغة جملة مكتملة تتكون عناصرها من وحدات لغوية صغرى قد تكون أصوتا أو كلمات تكتسب معناها من خلال علاقاتها النسقية من داخلها.

المراجع

1. *جان بياجيه: البنيوية، تر: عارف منيمنة وبشير أوبري، ط04، منشورات عويدات، بيروت،لبنان ، 1985م.*
2. إديث كريزويل: عصر البنيوية، تر: جابر عصفور، ط01، دار سعاد الصباح، الكويت، 1993م.
3. يوسف وغليسي: البنية والبنيوية في المعاجم والدراسات الأدبية واللسانية العربية- بحث في النسبة اللغوية والإصلاح النقدي، مجلة الضاد ع06، 2010، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر.
4. زكريا إبراهيم: مشكلة البنية، (د.ط)مكتبة مصر، الفجالة، مصر، (د.ت).
5. رولان بارط: درس السيميولوجيا.
6. صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي.

البنيوية خصائصها وآلياتها الإجرائية

01- خصائص البنيوية:

لا بد ونحن نتحدث عن البنيوية أن نستشف مميزات وخصائص تميزها عن باقي المناهج الأخرى وتتمثل خصائص المنهج البنيوي في ما يلي:

- التحليل الشمولي: حيث ترى أن الأشياء لا توجد في معزل عن بعضها البعض، بل ضمن كلية مجتمعة كنسق من العلاقات تحافظ على كيانها الداخلي.
- القيم الخلافية: الذي يتمثل في**<<الاعتراف بالفوارق بين المجموعات المنتظمة ومعرفة العلاقة بينها>>** ؛حيث يتوقف على السياق لتجسيد تلك الفوارق بين المجموعات المنتظمة الذي يكسب أنساقها أشكالا وألوانا يتحدد بها البناء الكلي .
- التحليل المنبثق: الذي يركز على دراسة البنية متخذا منها النواة التي ينبثق عنها.
- قاعدة المناسبة دراسة العناصر المكونة للموضوع، وطريقة قيامها بوظائفها.
- الامتداد عمقا: وهو الأمر الجوهري الذي يميز المنهج البنيوي، إذ يعيد التركيب والبناء بعد الكشف عن الميكانيزمات الحركية داخل النظام التي تساعد على كشف أسرار التفاعل الواقع بين أجزاء البنية في علاقاتها التواصلية والتشابكية.
- **النص وحدة دالة:** تنطلق البنيوية من مسلمة أنّ الأدب مستقل تماما عن أي شيء؛ إذ لا علاقة له بالحياة أو المجتمع أو نفسية الأديب إذ لا يهتم البنيويون بالبعد الذاتي و الاجتماعي للأدب واعتباره كائنا مستقلا

وجسدا لغويا ملتحما فمن الضروري التركيز على الجوهر الداخلي للنص الأدبي لأن هناك تكمن الأدبية. وينطلق البنيويون أيضا من مقدمات لها مسعى نقدي يكمن في رفض المناهج السابقة (السياقية) التي عجزت عن تحديد أدبية الأدب واعتبروا مهمة الناقد هي التركيز على النص وبنيته العميقة التي يتم الكشف عنها بتحليل منهجي منظم.

- **القارئ كاتب ثان:** اكتسب مفهوم الكتابة والقراءة حيزا في المنهج البنيوي الذي أصبح له بعد ذلك بعدا أوسع في مناهج ما بعد البنيوية وكان التركيز على هذا المفهوم مرتبط بتلك القفزة من الاهتمام بالمؤلف إلى الاهتمام بشبكة العلاقات التي ترتبط فيما بينها لتكون بنية كلية للعمل الأدبي فصارت الكتابة منظومة من القواعد التي تحتوي على تفاعلات نصية، وصارت القراءة قرينة بالنص المنطوي على معاني ثابتة ويكون دور القارئ عندها دور المحلل التركيبي والمركب المحلل الساعي إلى كشف شبكة العلاقات والقبض على معانيها.

02- الإجراءات النقدية للتحليل البنيوي:

بداية يجب التنويه بأنه لا يوجد قواعد وآليات بنيوية مضبوطة يستخدمها الناقد والمحلل البنيوي في مقاربته للنص الأدبي مما جعل النص الإبداعي يمارس سحره اللامحدود أمام المادة النقدية، ولكن رغم هذا سعت البنيوية باتجاهاتها المختلفة أن تباشر محاولتها للقبض على تلك الجماليات المرتمية في المجهول والمتمردة في عالم النص الأدبي . فما هي أهم هذه الإجراءات البنيوية؟

إنّ التحليل البنيوي للنص ينبثق من ذاته، إذ يتأمل الناقد الاتساق والأبنية الموجودة في النص وطرق أدائها لوظائفها وعلاقة بعضها ببعض، شرط ألا يتجاوز خارجه، لأن البنيوية لا تفصل بين الشكل والمضمون اللذان هما أساسا التحليل؛ حيث لا يكسب المضمون مضمونيته إلا من خلال بنيته(شكله) التي توحي بفكرة المحتوى. وبذلك تقارب البنيوية النصوص الأدبية من منظور نسقي مغلق على بنياتها
اللغوية والدلالية بعيدا عن كل المؤثرات الخارجية من خلال عمليتي "التفكيك والتركيب".

ترى "يمنى العيد" أنّ هدف البنيوية هو كشف عناصر البنية من خلال النظر في نسيج العلاقات اللغوية وأنساقها وبنيتها العميقة وأشكال التكرار في النص، إضافة إلى كشف آلية الحركة فيه. ويأتي صلاح فضل محاولا تأسيس مقاربة بنيوية للنص الأدبي انطلاقا من مستويات متعددة يؤدي ترابطها إلى الكشف عن الدلالات التي تتضمنها البنيات، بدءا بأصغر وحداتها كالفونيم وانتهاء إلى البنية الكبرى له. ويعرضها "صلاح فضل" على النحو التالي:

أ-المستوى الصوتي: يدرس هذا المستوى الحروف ورمزيتها وتكوينها الموسيقي من نبر وتنغيم وإيقاع والتي تقسم إلى مرحلتين هما:

- المرحلة الأولى: وهي المرحلة الصوتية الفونيمية التي تدرس البنية أو النظام الحرفي والحركي .
- المرحلة الثانية: وتسمى المرحلة النغمية التي تدرس فيها النبرة و نغمية التركيب.

و هاتان المرحلتان الصوتيتان تسعيان في نهاية الأمر إلى الكشف عن البنية الإيقاعية للعمل الأدبي الذي يشيع فيه جو نغمي يكفل له التميز و صنع الأدبية.

ب–المستوى الصرفي: وتدرس فيه الوحدات الصرفية ووظيفتها في التكوين اللغوي والأدبي خاصة، فهو يمثل الخطوة الثانية، تتم فيه تضام العناصر الصوتية في نظام مورفولوجي تشكل بنى إفرادية، محددة الدلالة معجميا، التي يطلق النسق سراحها في مدارات الحقول الدلالية وتكون الفونيمات مواد بناء فقط خالية من المعنى. ويرصد هذا المستوى تلك البنى الإفرادية في النسق زيادة وتجديدا، الذي يوجه القارئ إلى فهم النشاط اللغوي في اعتبارات بعيدة وراء الصفات الموضوعية، أو الدلالية الموجهة. وتكون القراءة الصرفية ذات أهمية من خلال عاملين: نشاط التركيب وفاعلية السياق، الذي يفرض علينا النظر إلى المستوى الصرفي نظرة جمالية ونفتح أمامها مجال التعدد القرائي وإلغاء الدلالة المباشرة، موفقين بين حضور التركيب والسياق معا، لأنّ عزل الظاهرة الصرفية لا يؤدي إلا إلى تفكيك جاف، أما إدماجها فكفيل بمد مداراتها المعنوية وإضفاء صبغة جمالية على العمل الأدبي من شأنها أن تظهر أدبيته وتفرده. وبذلك تزداد قيمة المستوى الصرفي في تشكيله المختلف للبنى الإفرادية داخل النسق والتحام أجزائها لتمنح العمل الأدبي خاصية الكلية و تفرض على القارئ أو الدارس القراءة الكلية المترابطة دون إهمال عنصر أو إقصاء آخر.

ج– المستوى المعجمي: وتدرس فيه الكلمات لمعرفة خصائصها الحسية والحيوية والمستوى الأسلوبي لها.

د–المستوى النحوي: لدراسة تأليف وتركيب الجمل، وطرق تكوينها، وخصائصها الدلالية والجمالية، فإذا كان المستوى الصرفي لا يتجلى جماليا إلا من خلال التركيب المفرد فإن المستوى التركيبي أو النحوي لا يمكن أن يقف عند حدود الدوال في الصورة التي تدل عليه ابتداء، لأن ذلك يعد خاصية معجمية تسعى لإبراز خصائص البنى المفردة المعزولة عن التراكيب الإسنادية، فتكون تلك التراكيب الإسنادية خرقا للسكونية المعجمية وتحليل تلك التراكيب بمثابة تفجير لهيكل اللغة وإبراز كيفية الانتقال من الدال إلى الدلالة، لأن دراسة الخطاب أو العمل الأدبي من وجهة تركيبية معناه البحث في دلالته وأن الصفات المعجمية فيه مجردة من الدلالة التي تحيله إلى الغموض الجنوني الذي يفقده قيمته التواصلية والجمالية. إن الغرض من التحليل التركيبي ليس إثبات صحة القواعد وسلامتها، إنما المسك والكشف عن التنوع الدلالي وتنوع القراءة ؛ لأن العمل الأدبي مبني على علاقات ثنائية حاضرة وغائبة فالأولى مظهر تركيبي والثانية دلالي، أو الأولى بنية سطحية تحكمها الدوال والثانية بنية عميقة تندس في ظلال تلك الدوال.

هـ– مستوى القول: لتحليل تراكيب الجمل الكبرى من أجل معرفة خصائصها الأساسية والثانوية.

و– المستوى الدلالي: ويشتغل هذا المستوى بتحليل المعاني المباشرة وغير المباشرة، والصور المتصلة بالأنظمة الخارجة عن حدود اللغة ، وتمارس وظيفتها على درجات في الأدب.

ز– المستوى الرمزي: تتفاعل المستويات السابقة لتكون دالا جديدا مما ينتج (مدلولاً) جديداً يقود بدوره إلى المعنى الثاني أو ما يسمى بـ(اللغة داخل اللغة). لتمثل هذه المستويات السبعة معالم عريضة للولوج في عوالم النص الأدبي لاستجلاء مكامنه الجمالية الخفية داخل نظام ثابت من العلاقات والظواهر التي تتطلب الصد المحايث والتحليل السايكروني.

الخلاصة

إن حقيقة البنيوية كمنهج ونظام هدمي/بنائي تتأتى من موقفها الثوري للسياق من جهة والمبدع من جهة أخرى فقد نظرت للنص كبنية مستقلة بذاتها وذلك سعيا منها إلى تحقيق علمية الأدب الذي يعد ضربا من المستحيل ويرجع قولنا هذا إلى طبيعة الأدب وجوهره، وهذا ما أكدته مناهج ما بعد الحداثة في فتحها لبنية النسق والانفتاح على مسارات التأويل ولا نهائية المعنى.

المراجع

9. صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، ط01، دار الشروق، القاهرة، مصر، 1998م.
10. حبيب مونسي: نقد النقد المنجز العربي في النقد دراسة في المناهج.